طرائف من ادب العرب

(١١) من العقد الفريد

شُرَيح وزوجتهُ وحمائهُ

« قال شُرَيح القاضي — وكان من جملة التابعين والعلماء المتقدمين وتزوج امرأة من بني تميم تسمى زينب فتقم عليها فضربها ثم ندم — :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلّت يميني حين اضرب زينبا
أأضربها في غير ذنب اتت بهِ فما العدل مني ضرب من ليس اذنبا (١)
فزينب شمس والنساء كواكب اذا برزت لم تبدِ منهنّ كوكبا » (٢)

وقيل انهُ لم يضربها بل هم بذلك ثم انكرهُ وقال هذه الابيات . وهذا ايضاً رأي صاحب الاغاني فقد جاء فيهِ عن الشعبي قولهُ « قال لي شريح (بعد تزوجهِ زينب) : واقمت عندها ثلاثاً ثم خرجت الى مجلس القضاء فكنت لا ارى يوماً الاّ هو افضل من الذي قبلهُ . حتى اذا كان راس الحول دخلت منزلي فاذا عجوز تأمر وتنهى . قلت يا زينب من هذه فقالت امي فلانة . قلت حياك الله بالسلام . قالت ابا امية كيف انت وحالك قلت بخير احمد الله . قالت ابا امية كيف زوجتك قلت كخير امراة . قالت ان المرأة لا ترى في حال أسوأ خلقاً منها في حالين اذا حظت (٣) عند زوجها واذا ولدت غلاماً . فان رابك منها ريب فالسوط فان الرجال والله ما حازت الى بيوتها شرّاً (٤) من الورهاء (٥) المتدللة . قلت اشهد انبئا

---

(١) وفي الاغاني :

أأضربها في غير جرم اتت بهِ الميّ فما عذري اذا كنت مذنبا

(٢) وفي الاغاني لاذكر هذا البيت لغثاثة ولا معنى وانما ورد مكانهُ :

فتاة نرين الحلي ان هي حليت كأن بنانها المسك خالط عنبا

وفي رواية أخرى :

فزينب شمس والنساء كواكب اذا طلعت لم تبقِ منهنّ كوكبا

(٣) حظيت بتشديد الظاء كانت ذات حظّ . وحظيت بالياء منها والثانية أكثر استعمالاً

(٤) شرّ اي اشرّ وخيرٌ اي اخير تحذف الهمزة منهما لكثرة استعمالها بغيرها . قال القاموس ولا يقال اشرّ الناس على الاصل الاّ في لغة قليلة او رديئة . وقال ايضاً ويستعمل الخير اسم تفضيل فتحذف الهمزة على خلاف القياس لكثرة الاستعمال ومنهُ في سورة الضحى « وللآخرة خيرٌ لك من الاولى » . وندعثرت على الخير في كلام الضحاك . قال الحسن بن يحيى بن الضحاك قبل مقتلهِ « اما بعد فلا اعلم اصحاباً ارق ولا اخير من اصحابي » (٥) الحمقاء

ابنتك قد كفيتك الرياضة واحسنت الادب . فكانت في كل حول تأتينا فتذكر هذا ثم تنصرف . فما غضبت عليها (اي زوجته) الا مرة كنت لها ظالماً فيها . وذاك اني كنت امام قومي فسمعت الاقامة وقد ركعت ركعتي الفجر فأبصرت عقرباً فجعلت عن قتلها فاكفأت عليها الاناء . قلت كنت عند الباب قلت يا زينب لا تحركي الاناء حتى اجيء فجعلت تحركت الاناء فضربتها العقرب فجئت فاذا هي تلوى فقلت مالك قالت لسعتني العقرب . فلو رأيتني يا شعبي وانا اعرك اصبعها بالماء والملح وانرأ عليها المعوذتين وفاتحة الكتاب . وكان لي جار يقال له ميسرة بن عروة من الحي فكان لا يزال يضرب امرأته فقلت» . . . وتلي الابيات المشار اليها

ما يصنع الشعر

« أسمع رجل عبدالله بن عمر بيت الخطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فقال ذلك رسول الله » . ونسب هذا القول الى عمر بن الخطاب نفسه لا الى عبد الله ابنه . جاء في البيان « قال هشام بن عروة سمع عمر بن الخطاب رجلاً ينشد (وهي البيت المذكور) فقال ذاك رسول الله »[1] . وقال الجاحظ «وقد كان الناس يستحسنون قول الاعشى :

تشبّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّقُ

فلما قال الخطيئة بيتهُ سقط بيت الاعشى »

وكان بنو انف الناقة يعابون بهذا الاسم في الجاهلية حتى قال فيهم الخطيئة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي[2] بانف الناقة الذنبا

فعاد هذا الاسم فخراً لهم وشرفاً فيهم

وكان بنو نمير اشراف قيس وذوائبها حتى قال فيهم جرير :

فغضّ الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا[3]

فما بقي نميري الا طأطأ رأسهُ . وقال حبيب :

فسوف يزيدكم ضعة مجاني كما وضع المجاه بني نمير

---

(١) وجاء في الاغاني : قال هشام بن عروة ان عمر بن الخطاب انشد قول الخطيئة (متى تأته الخ) فقال كذب بل تلك نار موسى بني الله (٢) وفي رواية ومن يساوي (٣) اسم قبيلة

الحطيئة

اقول — والشيء يتبع الشيء [1] — ان الحطيئة هذا اسمهُ جرول وهو ينتمي الى مضر ونزار ولكن نسبهُ مغموز متدافع بين قبائل العرب وكان ينتسب الى كل واحدة منها اذا غضب على الآخرين. وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم ادرك الجاهلية والاسلام فاسلم ثم ارتد. وكان محسوباً من بخلاء العرب الاربعة وهم حميد الارقط وابو الاسود الدؤلي وخالد بن صفوان ثلاثة والحطيئة رابعهم. وكان ذا شرّ وسفه هجّاء لا يبارى في الهجاء. وهو القائل يهجو نفسهُ لما اعياهُ وجود احد يهجوهُ:

ارى لي وجهاً شوّه الله خلقهُ فقبّح من وجه وقبح حاملهُ

قال الاصمعي يصف شعرهُ «وما انشاه ان تقول في شعر شاعر من عيب الاّ وجدتهُ وقلما تجد ذلك في شعره». وتنسب مثل هذا القول الى ابي عبيدة ومحمد بن سلام حيث قالا «وما انشاه ان تطعن في شعر شاعر الاّ وجدت فيهِ مطعناً وما اقلّ ما تجد ذلك في شعره»

ومن حكاياتهِ ما نقل عن ابي عبيدة قال «بينا سعيد بن العاصي يمشي الناس بالمدينة والناس يخرجون اولاً اولاً اذ نظر على بساطهِ الى رجل قبيح المنظر رث الهيئة جالساً مع اصحاب سمرة فذهب الشرط يقيمونهُ فابى ان يقوم وحانت من سعيد التفاتة فقال دعوا الرجل. فتركوهُ وخاضوا في احاديث العرب واسفارها ملياً. فقال لهم الحطيئة والله ما اصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب. فقال لهُ سعيد اتعرف من ذلك شيئاً قال نعم. قال فمن اشعر العرب قال الذي يقول:

لا اعدُّ الاقتار عدماً ولكن فقد من قد رزئتهُ الاعدام

وأنشدها حتى اتى عليها فقال لهُ من يقولها. قال ابو دواد الايادي. قال ثم من. قال الذي يقول:

ادرك ما شئت فقد يدرك الـ ـجهل وقد يخادع الاريبُ

ثم انشدها حتى فرغ منها قال ومن يقولها. قال عبيد بن الابرص. قال ثم من. قال والله لحسبك بي عند رغبة او رهبة اذا رغمت احدى رجليّ على الاخرى ثم هويت في اثر القراني عواء الفصيل الصادي [2] قال ومن انت. قال الحطيئة. قال فرحب بهِ سعيد

(١) هذه عبارة عربية قديمة يستعمل كتاب هذا العصر مكانها «والشيء بالشيء يذكر» وقد استعملها صاحب الاغاني في حديث عن الخوارزمي وصاحبه (٢) وفي رواية اخرى «كذا كم والله لي اذا اخذتني رغبة او رهبة ثم عويت في اثر القواني عواء الفصيل في اثر امه»

ثم قال اسأت بكيانا نفسك ووصلهُ وكساءهُ . ومضى لوجههِ الى عتيبة بن النهاس العجلي فسألهُ عتيبة من اشعر الناس . قال الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يفرهُ ومن لا يتقِّ الشتم يشتمِ [1]

وقال ابو عمرو بن العلاء لم نقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيهُ لا يذهب العرف بين الله والناسِ

فقيل لهُ فقول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزودِ

فقال من يأتيك بها ممن زودت أكثر . وليس بيت مما قالتهُ الشعراء الاَّ وفيهِ مطعن الاَّ قول الحطيئة « لا يذهب العرف بين الله والناس » . وقال سلم بن قتيبة ما اعلم قافية تستغني عن صدرها وتدل عليهِ وان لم ينشد مثل قول الحطيئة هذا »

ومن الطف قصصهِ ما حدثهُ الشعبي عن زياد قال ما خلاصتهُ . قام قيس بن فهد الانصاري في مجلس زياد فقال اصلح الله الامير ان شئت حدثتك عن عمر بما سمعت منهُ . وكان زياد يحبهُ الحديث عن عمر . قال هاتهِ . قال شهدتهُ واتاهُ الزبرقان بن بدر بالحطيئة فقال انهُ هجاني . قال وما قال لك . قال قال لي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

فقال عمر ما اسمع هجاء ولكنهُ معاتبة . فقال الزبرقان او ما تبلغ مروءتي الاَّ ان آكل وألبس . فقال عمر علىَّ بحسان فجيءَ بهِ فسألهُ فقال لم يهجهُ ولكن سلح عليهِ . فامر بهِ عمر فجعل في قفير في بئر فانشد :

---

(١) البيت لزهير من معلقتهِ المشهورة . ويروى ان ابن عباس سأله من اشعر الناس . فقال امن الماضين ام من الباقين . قال من الماضين . قال الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يفرهُ ومن لا يتقِ الشتم يشتمِ

وما يدريهِ الذي يقول :

ولست بمستبق اخاً لا تلمهُ على شعثٍ اي الرجال المهذبُ

والبيت لشابة الذبياني . وفي رواية ان هلال الاشعري قال السابق من الشعراء الذي سبق بالمدح فقال :

وما بك من خير اتوهُ فانما توارثهُ آباءُ آبائهم قبلُ

واما المصلي فهو الذي يقول :

ولست بمستبق اخاً لا تلمهُ على شعثٍ اي الرجال المهذبُ

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

الى آخر الابيات . فاخرجهُ بعد ان كملهُ فيهِ عمرو بن العاص وغيرهُ فانشدهُ البيتين المتقدمين وما بعدهما تبكي عمر حين قال « ماذا تقول لأفراخ بذي مرخٍ » فقال عمرو بن العاص « ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اعدل من رجل يبكي على تركة الخطيئة » . ويقال ان عمر اشترى منهُ اعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم

ولما حضرتهُ الوفاة اجتمع اليهِ قومهُ فقالوا اوصِ فاوصى بوصية طويلة كلها مجون لا محل لذكرها . ولما أعياهم حملهُ على الجدّ قالوا فهل شيءٌ تعهد فيهِ غير هذا قال نعم تحملونني على اتان وتتركونني راكبها حتى اموت فان الكريم لا يموت على فراشهِ والاتان مركب لم يمت عليهِ كريم قط . فحملوهُ على اتان وجعلوا يذهبون بهِ ويجيئون حتى مات وهو يقول

لا احد الأم من حطيّهْ شجا بنيه وشجا المريّهْ
من لؤمهِ مات على فريّهْ

والفرية الاتان . وهكذا لم يفارقهُ مجونهُ حتى فارقتهُ روحهُ . ومات في اواخر خلافة عمر

عَبيد بن الابرص

ولا بدّ لي هنا من كلمة اقولها عن عبيد بن الابرص الذي قال الحطيئة انهُ اشعر العرب بيتهِ المذكور آنفاً فاقول :

عبيد بن الابرص . . . . بن مضر شاعر فحل فصيح من شعراء الجاهلية . ويؤخذ مما ذكرهُ صاحب الاغاني عنهُ ان ابن سلام جعلهُ في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية وقال « ان شعرهُ مضطرب ذاهب لا اعرف لهُ الاّ قولهُ في كتابهِ (اقفر من اهلهِ ملحوبُ) ولا ادري بعد ذلك » . وهو الذي قتلهُ المنذر بن ماء السماء في احد ايام بؤسهِ حتى قيل يوم عبيد لليوم المنحوس فذهبت مثلاً

وقصيدتهُ التي مرّت الاشارة اليها في الكلام عن الحطيئة مختلفٌ في مكانها من شعر الجاهليين . فقد جعلها ابن قتيبة بين المعلقات وجعلها غيرهُ من المجمهرات وفي جملتهم ابو الخطاب القرشي صاحب جمهرة اشعار العرب . وهي ايضاً مختلفٌ في قرائتها فصاحب الجمهرة جعل مطلعها :

عيناك دمعها سروبُ كأن شانيها شعيبُ

وغيره جعله :

اقفر من اهله ملحوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنوبُ

وقيل في وزنها انهُ مجزوء البسيط اي « مستفعلن فاعلن مستفعل » ويجوز ان يكون من مجزوء المنسرح اي « مستفعلن فاعلاتُ فعلن » ، على ان ندرة هذا الوزن هي التي حملت على اختلاف قراءاتها فيما يرجح السر تشارلس ليل حتى ورد في نسخة « الجمهرة » الخطية التي في المتحف البريطاني قولهُ « لكثرة ما دخلها من الزحاف والقطع كادت ان لا تكون شعراً » . وقال ابن سيده في محكمهِ استناداً الى الخليل انها « شعر مهزول غير مؤتلف البناء » . واظن ان ما حدا بابي الخطاب والخليل ان يسفاها بما تقدم كون كثير من ابياتها لا يقاس على بحر من بحور الشعر المعروفة او مجزوءاتها حتى مجزوء البسيط ومجزوء المنسرح . فقد جاء في شرح التبريزي مثلاً هذا البيت

وبدّلت من اهلها وحوشاً وغيرت حالها الخطوبُ

فالصدر لا ينطبق على مجزوء البسيط الاَّ بعد حذف « من » منهُ . وجاء في كتاب ديوان شعر عبيد بن الابرص الذي نشرهُ السر تشارلس ليل منذ اربع سنوات هذا البيت مكانهُ :

ان بدلت اهلها وحوشاً وغيرت حالها الخطوبُ

وهو ما ورد في الجمهرة ايضاً . ومن هذا القبيل البيت الذي استشهد بهِ الحطيئة كما ورد في الاغاني وهو :

ادرك بما شئت فقد يدرك الـ جهل وقد يخادعُ الاريبُ

فهو مكسور شرّ كسرة وقد اصلح في الجمهرة بهذا البيت :

اللمع بما شئت فقد يُبلغُ بالـ ضعف وقد يخدعُ الاريبُ

فجبر بهِ العجز ولم يجبر الصدر . وصحتهُ مع المحافظة على المعنى هكذا :

افلح بما شئت قد يفيد الـ ضعف وقد يخدعُ الاريبُ

وروى ليل في كتابهِ نقلاً عن لاين ان بعضهم حاول اصلاح البيت بتضعيف الدال في « يخدع » فزادهُ فساداً على فساد

ومما تجدر الاشارة اليهِ هنا لفظ كلمة عبيد في اسم عبيد بن الابرص . فقد ارتأى المستشرقون ان لفظها عَبيد بفتح فكسر لا عُبَيد بضم ففتح جاء في تاج العروس « وسمّوا عباداً ككتاب وغراب وعَبيداً كامير وعُبيداً مصغراً وعُبَيدة بزيادة الهاء وعبيدة بفتح فكسر » .

وجاء فيه « ويوم عبيد يضرب مثلاً لليوم المنحوس » ولكنهُ لم يحرك عبيد . وكذلك جاء فيه « وفي همدان عبيد بن عمرو . وفي تميم عبيد بن ثعلبة . وفي الانصار عبيد بن عدي . وفي نهد عبيد بن سلامة والنسبة اليهم عبيدي » ولكنهُ ترك التحريك مما شفَّ عن جهلهِ لحقيقة لفظ عبيد فيها . وقد ورد في الصفحة ٤٠٠ و٤٨٣ من المجلد الرابع والاربعين من المقتطف بحيث في لفظ اسم عبيد بن الابرص فحواهُ انهُ يلفظ بفتح فكسر فليراجع البحث في موضعهِ

اوجع الهجاء

« قال عبد الملك بن مروان ما هجاني احد بأوجع من بيت هجاني بهِ ابن الزبير وهو :

فان تصيك من الايام جائحة لم تبكِ منك على دنيا ولا دين

وقالوا اهجى بيت قالتهُ العرب قول الطرماح بن حكيم :

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلَّتِ

ولو ان برغوثاً على ظهر قملةٍ رأتها تميم يوم زحف لولَّتِ

ولو ان عصفوراً يمدُّ جناحهُ لقامت تميم تحتهُ واستظلَّتِ

وكان جرير يقول « اذا هجوت فاضحك » وبلي ذلك هجاء مضحك لكن يندى لهُ وجه الاديب

وقد قسم البيانيون الانكليز الهجاء او بالحري الهجون الى قسمين هجون صالح وهو ما يراد بهِ الضحك على الموصوف معهُ من غير تعريضهِ للهزء والسخرية ويسمونهُ humour وهجون طالح وهو ما ينطوي على سوء النية ويراد بهِ تعريض الموصوف معهُ للهزء والسخرية ويسمونهُ wit للتفريق لهُ عن الاول اصطلاحاً مع ان اللفظتين مترادفتان لغة . وقد يكون المزاح فيهما بالكلام او بتصوير الصور كما في الصور المزلية او بالافعال . وفي جميع هذه الحالات يتوقف تعيين نوع المزاح على نسبة المازح الى الموصوف معهُ ومزاجهِ « وصوابقهما » ودرجتهِ في الاجتماع والعادات المألوفة وغير ذلك من الاسباب . فقد يصوّر ملك باقبح الصور في بلد ما ولا يرى في ذلك حطة من قدره في حين ان اهل بلد غيرهِ يحسبون في هذا التصوير اهانة لهم ولملكهم . وصحف الغربيين تصور الزعماء السياسيين بصور ذئاب او ثعالب او كلاب او أثمار فينظر هؤلاء اليها ويضحكون مع الضاحكين ولا يرَ بخواطرهم ان في ذلك سبَّة عليهم . ورأيت في هذه العاصمة مصوراً يصور الناس صوراً هزلية يضحكون منها ويدفعون الاجرة شاكرين . هذا كلهُ اذا انتفى سوء النية فاذا لاحت بوادرهُ ادى المزاح الى الخصام

نقيب